خطبة صلاة الجمعة 14/2/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أخطاء شائعة– عدم التأهيل للزواج)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير: قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:286].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:135].

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطففين:14]» [رواه الترمذي].

أيها الإخوة:

هذه سلسلةٌ جديدةٌ من الخطب عنوانها:

(أخطاءٌ شائعةٌ)

هدفها السَّعي لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإنَّ الله تعالى لا يُهْلِكُ قريةً أهلها متناصحون مصلحون: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

ولعلَّ في إصرار العباد على مخالفة الحقِّ تأخُّرَ الفرَج وزيادةَ الكرب، فالموفَّق مَن استدلَّ على خطئه أو دُلَّ عليه، فاعترف به وسعى لإصلاحه.

وليس العيب أن تقع، ولكن العيب أن تبقى أرضاً، وليس الشُّؤم أن تذنِب ولكن الشُّؤم أن تُصِرّ على ذنْبِك.

ولهذا رأيتَ الإسلام يفتح للعبد باب التَّوبة -وهي رجوعٌ عن الخطأ- فلا يُغلقه ما دام العبد حيَّاً، وما دامت الحياة الدُّنيا قائمةً.

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» [رواه مسلم]، **«إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»** [رواه الترمذي]

فهذه السِّلسلة خطوةٌ نعرف بها بعضَ أخطائنا لنسعى في إصلاحها نستعجلُ بها الفرَج من ربِّ العالمين.

وسيكون منهج هذه السِّلسلة أن أعرِض عليكم في كلِّ خطبةٍ مقدَّمة فيها مادة نظريَّة علميَّة عن الخطأ، ثمَّ أعرِض مادةً عمليَّةً، خطأ شاع بيننا، مبيناً سبب كونه خطأً ثمَّ أعرِض الصَّواب أو أقترح طريقةً لتصحيح هذا الخطأ.

وأتناول خطأً في العلاقات الأسريَّة مرَّةً, وخطأً في معاملاتنا الماليَّة مرَّةً أُخرى، وسأجعل شعار الأسرة: (أسرتي سكني ومسؤوليتي)، وشعار المعاملات الماليَّة: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم متعلِّقةٌ بخطأٍ في العلاقات الأسريَّة (أسرتي سكني ومسؤوليتي).

وفي خطبة اليوم مادةٌ نظريَّةٌ عن معيار الخطأ والصَّواب، ومادةٌ عمليَّةٌ في خطأٍ في علاقاتنا الأسرية.

- المادة النَّظرية: ما معيار الصَّواب والخطأ؟ أو بتعبيرٍ آخر مَن الذي يحدِّد الصَّواب والخطأ في أفعالنا وأقوالنا؟

الجواب: معيار الصَّواب والخطأ عندنا - نحن المسلمين – شرع الله، فما أمر الله به ورسوله هو الصَّواب وما نهى عنه هو الخطأ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:59].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:65].

ثمَّ إنَّ الله سبحانه وتعالى هو خالقنا وهو أعلم منَّا بما يصلحنا، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:14] .

هذا إذا كان الأمر يدور بين الحلال والحرام، فإذا كان أمران مباحان وأنت مخيرٌ بين أحدهما فمَن الذي يحدِّد صواب أحدهما وخطأ الآخر، إن كان ثَمَّة صوابٌ وخطأ؟

إنَّها المصلحة.

فالمعيار الأوَّل الشَّرع ثمَّ المصلحة، عِلْماً أنَّنا نتكلَّم عن المصلحة التي يقرُّها العقلاء الأتقياء لا مصلحة السُّفهاء الفاسقين.

فما وافق المصلحة ممَّا لا يخالف الشَّرع صوابٌ، وما خالف المصلحة خطأ.

– المادة العمليَّة: (أسرتي سكني ومسؤوليتي).

خرجت من عيادتي قاصداً المنزل، رَنَّ الهاتف الثَّقال، أجبت فإذا بشابٍ يقول هل بإمكاني أن أسأل سؤالاً فقهيَّاً، اعتذرت بأنَّني في السَّيارة ويمكنه الاتصال بعد عشر دقائق لأصل منزلي، اضطرب صوته وتسارعت كلماته وطلب أن أجيبه مسرعاً لأنَّ الموضوع جدُّ خطير، خِفت منه وعليه وظننت السُّؤال لا يحتمل التَّأجيل، فربَّما مريضٌ في غرفة الانعاش سيموت أو سجينٌ ينتظر إطلاق السَّراح بناءً على الجواب، فأجبته: ما عنوان سؤالك؟ فقال: طلقت زوجتي وأسألك فتوى لردها.

هنا اعتذرت إليه وأكَّدت له ضرورة أن يتَّصل بعد عشر دقائق، وعجبت لمتسرعٍ لا يستطيع الانتظار عشر دقائق كيف سيتروَّى لإنشاء أسرة.

هاتفني بعد وصولي للمنزل، وقال: هذه الطَّلقة الثَّالثة فقد رددتها مرَّتين قبل هذا، فهل لنا من مخرجٍ،

سألته: كم عمرك؟ أجاب ثنتان وعشرون سنة، قدَّرت عمر زوجته الثَّامنة عشرة أو قبلها بقليلٍ أو بعدها بقليلٍ.

منذ كم وأنت متزوجٌ؟ قال: منذ خمسةٍ وأربعين يوماً.

طلَّق ثلاث مرَّاتٍ خلال خمسةٍ وأربعين يوماً، مسكينٌ هذا الزَّوج ومسكينةٌ تلك الزَّوجة، أنا على يقين أنَّه لا يعرف من الزَّواج إلَّا اسمه، ولا تعرف هي من الزَّواج إلَّا أثوابه وأغنياته.

الطَّلاق في السَّنة الأولى ظاهرةٌ تفشَّت في البلاد العربية، وارتفاع نِسب الطَّلاق أمرٌ ملحوظٌ عامَّة، ذَكَرَ القاضي الشَّرعي الأوَّل في دمشق قبل أيَّام أنَّ عدد دعاوى التَّفريق في المحكمة الشَّرعيَّة بدمشق (7121)، أي قريباً من عشرين دعوى كلَّ يومٍ، عِلْمَاً بأنَّ المحكمة الشَّرعيَّة بدمشق تقوم الآن بعمل محكمتي دمشق وريفها.

وإنِّي تفكَّرت طويلاً في ذا الأمر، وتابعت دراساتٍ وندواتٍ وورشاتٍ تتحدَّث عن هذا الأمر وحوله، ووصلت إلى خطأٍ شائعٍ بيننا نرتكبه ساهين ونكرّره غافلين!

إنَّنا بشكلٍ عامٍّ لا نؤهِّل أبناءنا وبناتنا للزَّواج، نؤهِّل للُّغة الانكليزيَّة، ونؤهِّل لقيادة السَّيارة، ونؤهِّل للعمل على الحاسب، ولكن هل نؤهِّل للزَّواج وقيادة الأسرة؟

نعقد دوراتٍ للمحاسبة، ودوراتٍ للمبيعات، ودوراتٍ للإخراج السِّينمائي والتِّلفزيوني، ولكن هل نعقد دوراتٍ تأهيليَّةٍ للحياة الزَّوجية؟

المتوقَّع لمن لم يتدرَّب على قيادة السَّيارة أن يصطدم بالجدار إذا قادها.

والمتوقَّع لمن لم يتدَّرب على الحاسب ثمَّ يعمل به أن يُسيء استخدامه.

والمتوقَّع لمن لم يتقن اللُّغة الأجنبية أن لا يستطيع التَّرجمة والتَّعبير بها وعنها.

والمتوقَّع لمن لم يتأهل للزَّواج أن يُسيء بَدَلَ الإحسان، وأن يُؤذي بَدَلَ أن ينفع، وأن يَصل إلى الطَّلاق.

هذا خطأٌ شائعٌ بيننا أنَّنا لا نؤهِّل أبناءنا وبناتنا إخواننا وأخواتنا للزَّواج، فنرى قصصاً في شبابنا تجعل الولدان شيباً، ونسمع أخباراً مِن فتياتنا تدع الحليم حيراناً.

– الحلُّ المقترح لتصحيح هذا الخطأ:

عكفت مع إخوةٍ كرامٍ لسنواتٍ ندرس ونحاول التَّحليل لهذا الأمر، وجمعنا مادةً علميَّةً عمليَّةً، ثمَّ تخيرنا منها، ثمَّ رتبناها، ثمَّ جمعنا لها بعض الوسائل التَّدريبية، ثمَّ أطلقناها (الدَّورة التَّأهيليَّة للحياة الزَّوجيَّة)، تضمَّنت حديثاً عن دوافع الزَّواج، والتَّأهيل النَّفسي للمقبلين على الزَّواج، وماذا يريد الزَّوج من زوجته وعكسه، ودعوة الإسلام للزَّواج، واختيار الزَّوج والزَّوجة، ومراحل الخطبة والعقد، والفترة بين العقد والعرس، وحديثاً عن ليلة العرس، وواجبات الزَّوج والزَّوجة، وكيف تحلُّ المشكلات الزَّوجيَّة؟، وكيف تدير نفقات الأسرة؟، وحديثاً مطوَّلاً عن الطَّلاق من النَّاحية الفقهيَّة والتَّطبيقيَّة ليكون دواءً لا داءً.

صوَّرنا الدَّورة للفضائيَّات، فعُرِضَت على ما يزيد من أربعين فضائيَّة إلى اليوم، وعقدناها في عددٍ من مساجد الشَّام ومراكزها الثَّقافيَّة وبعض المحافظات الأخرى، وهي مطلوبةٌ الآن لدولٍ عربيَّةٍ أُخرى، وسنعقد قريباً -بإذن الله- دورةً في مسجد الرَّازي بدمشق، نخبركم عن موعدها لاحقاً وطريقة التَّسجيل، ويصار إلى عقد دوراتٍ تخصصيَّةٍ لها ننبيكم عن وقتها وبرامجها، وألَّفت كتاباً هذا عنوانه: (الدَّورة التَّأهيليَّة للحياة الزَّوجيَّة)، طبعته دار الفكر بدمشق، وعقدنا لها برامج إذاعية، وبعض موادها منشورةٌ على الانترنت وصفحات الفيس.

كلُّ هذا -أيُّها الإخوة- لنحمي شبابنا وبناتنا وأسرنا ومجتمعنا من خطر ضعف الأسرة وتفككها، ولتبقى أسرتي سكني ومسؤوليتي، أحِنُّ إليها وأحنو عليها، أرعاها فتيَّةً وترعاني كهلاً، فيرضى الله بذلك عنِّي وعنها.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور:21].

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان:74-76].

نسأل الله أن يعيننا على كلِّ خيرٍ، وأن يصرف عنَّا كلَّ سوءٍ، وأن يصحح أقوالنا وأفعالنا، حتَّى يُعجِّل لنا بالفرج.

والحمد لله رب العالمين